

## النووي والمواجهة الحامية

كانت مواجهة صارخة وعنيفة بين الإمام النووي رحمه الله، بتقواه وورعه وخشيته لربه، وبين الملك الظاهر بيبرس بصلفه وغروره وتجبره وبطشه بمعارضيه، ولكن أنى لهذا الصلف والغرور، أن يجد طريقه أمام نفس زكية تقية لا تخشى في الله لومة لائم.

يصفه الذهبي رحمه الله بقوله: "كان عديم المثل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان لا يبالي في أمره ونهيه لومة لائم، ولا يبالي الإهانة والموت، ولا يكبر عنده أحد عن النصيحة حتى العلماء والأمراء والملوك والجبابة"<sup>١</sup>

وقال: "كان يواجه الملوك والظلمة بالإنكار، ويكتب إليهم ويخوفهم بالله تعالى.."<sup>٢</sup>

ولعل القارئ يعرف مسيرة هذا السلطان، وما له من بطولة ومضاء وجراءة وقوة، فقد كافح الصليبيين في مواقع مشهودة، وكان له دوره الملموس في القضاء على التتار وكسر أسطورتهم التي أرعبت الدنيا أمماً وشعوباً. ولكنه رغم هذا الدور المذكور، كان في حكمه وإدارته شديداً عنيفاً، لا يعرف في حكمة رحمة ولا شفقة.. ويوم أن مات العزبن عبد السلام الذي كان لا يرهب حاكماً أو طاغية مهما بلغ سلطانه وعلت قوته، ظن بيبرس وقتها، أن الدنيا قد صفت له بعد موت هذا الخصم العنيد، الذي رفض مبايعته بعد خيانتة للسلطان قطز فقال يومها:

١ - سير أعلام النبلاء للذهبي

٢ - راجع الامام النووي - عبد الغني الدقر - سلسلة أعلام المسلمين

(اليوم استقر ملكي، فإن هذا الشيخ لو قال للناس اخرجوا عليه لانتزع مني ملكي)! كان يظن أن الدنيا قد صفت له، وأنه لم يعد هناك علماء ثائرون شجعان يقولون قولة الحق ولو ملأت السيوف ببوارقها كل الأمكنة، حتى فوجئ بنموذج جديد، يقول له: لا، وصورة متكررة من طراز العز بن عبد السلام، ذلك الذي فرح لموته بالأمس، وتيقن أن ملكه ثابت مستقر. وهو ما حدث وتجلى شاهداً في قضية الحوطة الشهيرة، التي أريقت فيها الدماء، وذهبت بسببها أرواح كثير من العلماء.. فماذا كان من أمر النووي، حينما جاء دوره ليفتي برأيه الفقهي بعد هذه المذابح والأهوايل، التي لم تكن جريرة أصحابها إلا أنهم قالوا للسلطان: لا، ولم يزلوا على هواه، ولم يحققوا مأربه فيما يريد.؟ هل نَحَى النووي منحاهم، أم زُعر وانزوى وجانب ما لا طاقة له به؟!

كان الظاهر بيبرس كما حُكى عنه شديد التمسك بالشرع والجهاد وإقامة الأمة على الشريعة، فقد قال عنه ابن كثير: "كان متيقظاً شهماً شجاعاً، لا يفتر عن الأعداء ليلاً أو نهاراً، بل هو مناجز لأعداء الإسلام وأهله، معني بلم شعته واجتماع شمله، وبالجملة.. أقامه الله في حلوق المارقين من الفرنج والتتار والمشركين، وأبطل الخمر ونفى الفساق من البلاد، وكان لا يرى شيئاً من الفساد والمفاسد إلا سعى في إزالته بجهد وطاقته" (١) وقد تصيبنا الحيرة من هذا التناقض فكيف لرجل على هذا الأمر من العناية بالدين ولزوم الجهاد والدفاع عن حرمة الل،ه ليقف في وجه العلماء حينما يصدحون بالحق، ويستهمتر بهذه الدماء الطاهرة الغالية التي لم يكن من ذنب أصحابها إلا أنهم لم يو افقوه فيما أراد؟!

(١) البداية والنهاية ج ١٣-ص ٢٧٦

ويأتي الأستاذ (أبو الحسن الندوي) فيحاول أن يقف بنا على هذا اللبس، ويوضح لنا هذا الإشكال، ويزيل عنا هذه الحيرة وهذا التناقض حيث يقول: "وكان الظاهر ببيرس على كفاءته الشخصية، ودوافعه الإسلامية، وحماسه للجهاد، حاكمًا مستبدًا برأيه، فلا غرابة إذا وجدت فيه بعض مواضع الضعف، مما يتصف به الملوك المستبدون، وإن تاريخه حينما يتحمل بمآثره الجليلة وخدماته الإسلامية، يتسم بخصائص المملكة الشخصية، وأحداث الاستبداد والعناد والإصرار أيضًا، وما حدث للإمام النووي معه من معاملة مؤسفة لدليل على ذلك" (١)

فماذا كان من أمره مع الإمام النووي، الذي لم يتسرب إليه الخوف، ولم يرتعد من الزعر، ووقف في وجه هذا الجبار يُعلن الحق لا يخشى سيفه أوجلاده؟!

ذكرت كتب التراجم، أن الظاهر ببيرس حينما أراد الخروج إلى قتال التتار، بالشام لم يكن في بيت المال ما يقوم بتجهيز الجيش والإنفاق على المقاتلين، فاستفتى علماء الشام في جواز فرض الضرائب على الشعب، لإعانة السلطان والجيش على قتال الأعداء، وتغطية النفقات المطلوبة، وطلب أن توقع فتيا من قبلهم، فوقعها كثير منهم.. بعضهم خوفًا وبعضهم طمعًا، وامتنع خلق من العلماء، بل أفتوا بعدم الجواز، فعرضوا على السيف وقتلوا، وكان النووي غائبًا، فلما سأل السلطان العلماء: هل بقي من أحد؟ قالوا: نعم بقي الشيخ محي الدين النووي، فطلبه فحضر فقال له: اكتب توقيعك مع الفقهاء، فامتنع الشيخ وأبى، وسأله السلطان: ما سبب امتناعك؟ قال الشيخ: أعرف أنك كنت في الرق للأمير بندقار وليس لك مال، ثم من الله عليك وجعلك ملكًا وسمعت أن عندك ألف مملوك، لكل مملوك

(١) رجال الفكر والدعوة - أبو الحسن الندوي

حياصته من الذهب، وعندك مائتا جارية، لكل جارية حُق من الحلي، فإن أنفقت ذلك كله، وبقيت مماليكك بالبتون والصوف بدلاً من الحوائص، وبقيت الجواري بثيابهن دون الحلي، ومع هذا تطلب أن أفتيك بأخذ المال من الرعية؟ فغضب الملك الظاهر من كلامه وقال: أخرج من بلدي يعني دمشق، قال: سمعاً وطاعة.. وانتقل منها إلى بلده نوى وهي ضيعة بأرض حوران، فقالت الفقهاء للملك الظاهر بعد ذلك: إن هذا الذي أمرت بخروجه من دمشق من كبار العلماء والصلحاء وممن يقتدى به، فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه إليها فساروا إليه ورغبوه في الرجوع إلى دمشق وقالوا: قد رسم السلطان برجوعك إليها، فامتنع وقال: لا أدخلها والمملك الظاهر بالحياة أبداً!

وبعد شهر.. كان الملك الظاهر في نفسه شيء من بعض أمرائه فصنع له شربة مسمومة، ودسها بين شربات غير مسمومة، فلما قصد أن يسقي الأمير تلك الشربة المسمومة، غلط فشرب هو المسمومة فمات، وشرب الأمير غير المسمومة فسلم.. فلما سمع الشيخ محي الدين بموت الملك الظاهر دخل دمشق" (١)

وقيل للملك ما سبب عدم قتلك للنووي؟ فقال: كلما أردت قتله، أرى على عاتقه سبعين يريدان افتراسي فامتنع من ذلك.. وكان النووي يقف للظاهر في دار العدل ويراجعه كثيراً..

يقول شيخنا (محمد الغزالي) رحمه الله معلقاً على الموقف: "ذلك حاكم عظيم انتصب لمحاربة الهمجية الجارفة التي أشاعها التتار في الأرض، والتي أصاب الإسلام منها بلاء كبير، وشر مستطير، طوى لواء الدولة العباسية في بغداد، ويوشك أن يطوى أعلام الإسلام المرفوعة في دمشق والقاهرة وغيرها،

(١) كتاب الإمام محمد بن القاسم النويري (ج ٤ ص ٨١: ٨٣)

ويريد الحاكم باسم الإسلام وفي سبيل هذه الغاية النبيلة أن يستولى على ما يشاء من الأموال والثروات، فيتصدى له عالم باسم الإسلام ولوجه الله، ويقول له: على رسلك.. نج مظاهر الترف من حولك، حتى إذا استنفدت ما يتمتع به الأغنياء من الكماليات النافلة، عدت إلى جمهور الشعب فصادرت ما عنده من ضرورات لازمة، ويوم تفعل ذلك يعطيك الشعب قوته قير العين، كما أعطاك دمه رضي النفس، أما الافتيات على الفقراء وترك الناعمين المترفين يأكلون كما تأكل الأنعام، فذلك ما لا يرضاه الإسلام!

يقول الندوي: "لما أراد الظاهر بيبرس مصادرة الاقطاعات وأراضي الإقطاعيين في مصر والشام، خالفه الإمام النووي مخالفة عنيفة، ولم يتشجع على مصادرتها، بل تركها على سابق حالها، ولم يغيرها أو يعدل.. كان بيبرس وخلفاءه من الملوك يحاولون أن تنال قوانين مملكتهم وأحكامهم وإجراءاتهم تأييد العلماء والمعاصرين، ولا ينفذا أمرًا إلا بالاستشارة معهم واسترضائهم، وقد أُلغي في بعض الأحيان، سن قانون جديد صدر من الملك أو تنفيذه حين خالفه العلماء"<sup>١</sup>

لقد كان النووي صاحب علم غزير، ولكن هذا العلم لم يكن ليغرر به ويعميه عن مسؤوليته أمام ربه، وأمام التاريخ نحو دينه وأمته، فكان نعم العالم العامل والفقير الرباني الذي لا يعرف معنى الخوف في نفسه.

---

١ - الإسلام المقتضى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين